الفصل الثامن

تشيكوسلوفاكيا

obeikandl.com

obeikandl.com

عندما كان هتلر متجها في سيارته نحو فيينا ، التفت إلى الجنرال فون هولدر وقال له «لاشك أن خطوتنا هذه ستقلق التشيكيين» ، وأدرك هولدر على الفور ما قصده هتلر بكلمته تلك ، وظهرت له نواياه المقبلة .

وقد سمعنا أن غورنغ ، يوم دخلت الجيوش الألمانية أراضي النمسا ، قال للوزير التشيكي المفوض في برلين ، مؤكدًا له بصور قاطعة بأن ليس لألمانيا أية نوايا سيئة ضد تشيكوسلوفاكيا، كما أعلن المسيو بلوم ، رئيس وزراء فرنسا يوم الرابع عشر من شهر آذار ، في حديث له مع الوزير المفوض في باريس ، أعلن له بكل جدية ووقار ، أن فرنسا ستقوم بالتزاماتها تجاه تشيكوسلوفاكيا دون أي قيد أو شرط ، إلا أن جميع هذه التأكيدات لم تستطع أن تغير شيئًا من الحقيقة الرهيبة .

ومن جهة ثانية ، حاولت بريطانيا الوصول إلى اتفاق مع إيطاليا حول البحر الأبيض المتوسط، رغبة منها في وقف ألمانيا عند حدها ، كما أن مثل هذا الاتفاق سيقوي من مركز فرنسا ، ويمكنها هي من مراقبة ما يجري من أحداث في أواسط أوروبا ، وقد حاول موسوليني أن يتخذ لنفسه مركزًا قويًا للمساومة خاصة بعد أن اطمأن لسقوط إيدن ، فقرر الاتفاق مع بريطانيا ، وتم توقيع الاتفاق الإنكليزي الإيطالي في السادس عشر من شهر نيسان عام ١٩٣٨ ، الذي يقضي بالسماح لإيطاليا بالعمل في الحبشة وإسبانيا على هواها ، مقابل حسن نيتها في أواسط أوروبا ، وكانت وزارة الخارجية كثيرة التشكك في هذه الاتفاقية، وقد قال لنا مؤرخ حياة تشمبرلين ، فيلينغ ، أنه كتب في رسالة شخصية خاصة : «لو رأيت مسودة الاتفاقية التي قدمتها وزارة الخارجية ، لقلت أنها كافية لأن تجمد دبًا قطبيًا!» .

وكنت من ناحيتي أشاطر وزارة الخارجية مخاوفها تلك .

وكان هتلر من جهته يراقب الوضع باهتمام ، فهو يعلم أن موسوليني بحاجة إلى مساعدته حين تطلق يده للعمل في الحبشة ، وهذا ما سيفرض عليه قبول ما ستعمله ألمانيا في تشيكوسلوفاكيا، وراحت الدوائر الرسمية تدرس البيانات الإنكليزية والفرنسية ، وشعرت بارتياح لعزم الدولتين الغربيتين على إقناع التشيكيين بوجوب التروي حفاظًا على السلام في أوروبا، وفي هذه الإثناء ، بدأ الحزب النازي السويدي بزعامة هانلاين ، بوضع لائحة

بمطالبه المتضمنة الحصول على الحكم الذاتي في المناطق المجاورة لألمانيا ، وسارع الوزيران البريطاني والفرنسي إلى زيارة الوزير التشيكي لإقناعه و «للإعراب عن أملهما الصادق في أن تمضي الحكومة التشيكية إلى هذا الحد ، رغبة منها في تسوية النزاع وحسمه » .

وفي شهر آيار ، وصلت التعليمات من ألمانيا ، إلى الألمان في تشيكوسلوفاكيا ، بزيادة الاضطرابات، وكان موعد الانتخابات قد حان ، وبدأت الحكومة الألمانية تساعد الفوضى ، بحملة مركزة من حرب الأعصاب ، والإشاعات القائلة أن القوات الألمانية تتجمع على الحدود التشيكية ، ولم تؤد التطمينات التي أذاعتها حكومة ألمانيا ، إلى تهدئة التشيكيين الذين أعلنوا هم أيضًا التعبئة العامة في صفوفهم .

لقد كان هتلر متيقنًا أن إنكلترا وفرنسا لن تدخلا الحرب دفاعًا عن تشيكوسلوفاكيا ، لذلك دعا مستشاريه وأصدر التعليمات بالاستعداد للهجوم على تشيكوسلوفاكيا ، إلا أن هذا الهجوم المطلوب لم يكن بالأمر السهل ، إذ يترتب على ألمانيا أن تقذف نحوا من خمس وثلاثين فرقة عسكرية لتتمكن من اختراق الخطوط الدفاعية التشيكية ، فالجيش التشيكي يعتبر من أحدث الجيوش كفاءة وتجهيزًا ، هذا بالإضافة إلى أن روسيا السوفييتية مرتبطة مع تشيكوسلوفاكيا، وهي تتربص بألمانيا في حال محاولتها الهجوم على الأراضي التشيكية .

إلا أن هتلر ، بالرغم من اعتقاده بنجاح فكرته بالاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا ، فقد حاول أن يطمئن قادته الذين عارضوا فكرته تلك ، بأن قال لهم بأنه لن يبدأ هجومه إلا حين يتأكد أن فرنسا وإنكلترا لن تتدخلا في هذه المعركة ، إلا أنه في الثاني عشر من شهر أيلول وفي خطاب إلقاء في اجتماع لشبيبة الحزب في نورمبرغ ، هاجم الحكومة التشيكوسلوفاكية بعنف، ولم تلبث الحكومة هذه أن ردت عليه في اليوم التالي بأن فرضت الأحكام العرفية في بعض المناطق من الجمهورية ...

❖ ❖ ❖

وفي الحادي والعشرين من شهر أيلول ألقى لتفينوف في جلسة الجمعية العامة لعصبة الأمم إنذارًا رسميًا هذا نصه :

«إن جمهورية تشيكوسلوفاكيا، تعاني في الأيام الحاضرة من تدخل إحدى الدول الأجنبية المجاورة، في شؤونها الداخلية، كما أنها تتعرض لتهديد سافر بالهجوم عليها، ولذلك سيجد هذا الشعب الذي نعتبره من أعرق الشعوب الأوروبية حضارة، والذي كافح طويلاً من أجل الحصول على استقلاله، سيجد هذا الشعب نفسه مضطرًا على حمل السلاح من أجل الدفاع عن كيانه واستقلاله، وقد تلقيت منذ أيام سؤالاً من الحكومة الفرنسية، عن موقف بلادي في حال تعرضت تشيكوسلوفاكيا لهجوم أجنبي مفاجئ، وقد وجهت إلى الحكومة الفرنسية جواب بلادي الصريح التالي:

«إننا سنقوم بالتزاماتنا وسنطبق ميثاق عصبة الأمم، وسنقدم كل مساعدة ممكنة لتشيكوسلوفاكيا، وذلك بالتعاون مع فرنسا، كما أن وزارة الحربية على أتم الاستعداد للاشتراك في أي مؤتمر يعقد بين فرنسا وتشيكوسلوفاكيا لدرس الوسائل المناسبة لمواجهة الأحداث» كما أن حكومتي قد تلقت من الحكومة التشيكوسلوفاكية سؤالاً حول موقف الاتحاد السوفييتي وهل هو على استعداد لتقديم المساعدات بموجب الاتفاق السوفييتي - التشيكي، إذا قامت فرنسا هي الأخرى بالوفاء بإلزاماتها، وكان جواب حكومتي على هذا السؤال واضحًا بالإيجاب».

ولم يلق هذا البيان الصريح أذنًا صاغية لا من حكومة بريطانيا العظمى ولا من حكومة فرنسا، فقد تجاهلت الدولتان هذا العرض، ولم يحسب أي حساب لهذه الدولة الكبرى، وقد أثرت هذه المعاملة المنطوية على الكثير من الازدراء، وتركت أثرًا كبيرًا على عقلية ستالين وتفكيره، وقد كلفنا الازدراء والتجاهل الكثير من التضحيات الغالية فيما بعد.

وألقى هتلر في السادس والعشرين من الشهر الحالي، خطابًا هاجم فيه بعنف تشيكوسلوفاكيا ورئيسها، إلا أنه كان معتدلاً تجاه فرنسا وبريطانيا العظمى، ومما قاله في خطابه، أنه يجب على تشيكوسلوفاكيا أن تتخلى فورًا عن بلاد السوديت، وأنها إذا ما تخلت عن هذه المناطق، فسيعتبر القضية منتهية تمامًا ولن يعود يهمه أمر تشيكوسلوفاكيا على الإطلاق، وأضاف بقوله أن هذا المطلب هو آخر مطلب إقليمي له في قارة أوروبا، وفي الساعة الثامنة من الليلة نفسها صدر البلاغ التالي عن وزارة الخارجية البريطانية:

« بالرغم من المحاولات المبذولة من جانب بريطانيا لتسوية المشكلة التشيكوسلوفاكيا، وإذا ما حدث أن تعرضت البلاد إلى هجوم ألماني عليها، فإن فرنسا ستسارع إلى مساعدتها، كما أن بريطانيا العظمى والاتحاد السوفيتي سيقفان بلا شك، إلى جانب فرنسا ».

وشعرت أن ساعة القتال قد اقتربت. فقد كان عدد الجيش التشيكي مليونًا ونصف المليون من الجنود المجهزين بأحدث الأجهزة، تساندهم آليات جبارة رائعة التنظيم، وبدأت تعبئة الجيش الفرنسي في الحال، كما أصدرت الإمبراطورية البريطانية الأوامر بتعبئة الأسطول.

❖ ❖ ❖

وفي هذه الأثناء، بدأ الصراع بين هتلر ومستشاريه، فقد بدا لهم أن الأزمة قد تفاقمت بشكل خطير، فهناك نحو من ثلاثين إلى أربعين فرقة مدرعة قد احتشدت على طول الحدود الشرقية لألمانيا، كما أن الجدار الغربي للبلاد قد سدته الحشود الفرنسية التي كانت تفوق قوة ألمانيا بنسبة ثمانية إلى واحد، كذلك الجيوش السوفيتية التي راحت تشق طريقها عبر بولندا ورومانيا، وفي الحال قام فريق من الجنرالات الألمان بمؤامرة لاعتقال هتلر و «إنقاذ ألمانيا من هذا المجنون».

وفي هذا الوقت، أبرق المستر تشمبرلين إلى هتلر، دون أن يستشير أحدًا، مقترحًا عليه زيارته وطار المستر تشمبرلين إلى ألمانيا وقد اقتنع أن حل المشكلة التشيكية هو في فصل منطقة السوديت عن تشيكوسلوفاكيا، ولذلك سيقنع هتلر ويتخلى عن هجومه، وفي ميونيخ، حيث نزل المستر تشمبرلين، لحق به المسيو ديلاديه رئيس وزراء فرنسا، وموسوليني، ولم توجه دعوة على روسيا لحضور هذا الاجتماع، كما لم يسمح للتشيكيين بالحضور أيضًا، وقد أبلغت الحكومة التشيكوسلوفاكية بأن مؤتمرًا سيعقد في اليوم التالي يضم ممثلين عن الدول الأوروبية الأربع فقط، وانعقد المؤتمر عند الظهر من اليوم نفسه واستمر حتى الساعة الثانية من صباح اليوم التالي، وتم الوصول إلى اتفاق بين «الأربعة الكبار»، وأعدت مذكرة وقع عليها الجميع في الجلسة نفسها، وكانت المذكرة تتضمن قبولاً بكل ما تطلبه ألمانيا وموافقة تامة على وجوب الجلاء عن منطقة السوديت خلال عشرة أيام، كما تقرر تعيين لجنة دولية

للإشراف على تخطيط الحدود النهائية .

وهكذا بدأت عملية تقطيع تشيكوسلوفاكيا ، ولم تتته المشكلة عند هذا الحد ، فقد وجهت بولندا إنذارًا إلى الحكومة التشيكوسلوفاكية يقضي بتسليم منطقة «تيشين» الواقعة على الحدود بين البلدين ، وذلك خلال أربع وعشرين ساعة ، ولم يكن هناك من سبيل لرفض هذا المطلب القاسي، كما جاء المجريون يطالبون هم أيضًا بحصتهم من الغنيمة .

* * *

اتفاق ميونيخ ومشاعر البريطانيين:

يقول تشرشل :

ليس من السهل ، بعد أن مررنا خلال تلك السنوات القاسية أن نصور للأجيال القادمة حقيقة المشاعر المتأججة في نفوس البريطانيين نتيجة لاتفاق ميونيخ ، فقد انقسم الرأي بين أفراد أسر المحافظين وأصدقائهم إلى حد كبير جدًا لم أر مثيلاً له في حياتي ، وكان الرجال والنساء الذين تربطهم ببعضهم البعض علاقات متينة ينظرون إلى بعضهم البعض نظرات كلها احتقار وغضب، ونحن لم نكن لنهتم كثيرًا آنذاك بالرغم من نظرات السخرية والهزء التي يقابلنا بها أنصار الحكومة، واهتزت أركان الحكومة ، إلا أنها ظلت متماسكة ، ولم يصمد إلا وزير البحرية المستر داف كوبر ، الذي قدم استقالته بعد أن بقي محافظًا على كرامته حين أمر بتعبئة الأسطول، ففي الوقت الذي كان المستر تشمبرلين يسيطر على الرأي العام البريطاني سيطرة تامة ، كان المستر كوبر يندفع من بين الصفوف ليعلن إلى الرأي العام معارضته التامة لموقف رئيسه .

وألقى المستر كوبر خطاب استقالته ، في مجلس العموم أثناء مناقشة موضوع اتفاق ميونيخ ، وقد اعتبرت هذه الاستقالة حدثًا بارزًا في الحياة البرلمانية ، وتحدث الوزير لمدة أربعين دقيقة بحرية تامة مرتجلاً خطابًا وطنيًا سيطر فيه على مشاعر خصومه ومعارضيه من نواب الحزب ، وصفق له نواب العمال والأحرار المعارضون للحكومة ، طويلاً وهتفوا له محيين ، وكانت هذه الحادثة بداية انشقاق في حزب المحافظين .

ولا زلت أذكر حين قمت في المجلس وأعلنت «إننا قد منينا بهزيمة منكرة لم يسبق لها مثيل .. فقد ثارت ضدي عاصفة ضخمة في المجلس مما اضطرني إلى التوقف عن الكلام لفترة قبل أن أعود إلى متابعة كلامي ، فقد كان هناك شعور من الإعجاب بما يبذله المستر تشمبرلين من جهود صادقة للمحافظة على السلام ، وخاصة محاولاته الشخصية التي قام بها في هذا الصدد، وهنا لا بد لي من ذكر الأخطاء وسوء التقدير للحقائق الراهنة التي وقع فيها تشمبرلين في محاولاته ، وإن كنت لا أعارض الدوافع التي حدت به إلى اتخاذ المواقف التي وقفها والتي تحتاج إلى الكثير من الشجاعة الأدبية التي كان المستر تشمبرلين يتمتع بها ، وقد مدحت فيه هذه الشجاعة بعد عامين في خطابي الذي ألقيته بمناسبة وفاته .

لقد كان في إمكان الحكومة أن تعتمد حجة أخرى ، بالرغم من أنها تعرض بسمعة الحكومة نفسها ، فلم يكن أمر عدم استعدادنا لدخول الحرب بالأمر الخفي ، لكن هل كان من هو أسرع مني للإدلال على هذه الحقيقة ؟ لقد سمحت بريطانيا للقوة الجوية الألمانية أن تتفوق عليها ، وكانت جميع مراكزنا معرضة للهجوم ، دون أي حماية ، ولم يكن في بلد من أكبر بلدان العالم وأكثرها كثافة في السكان ، سوى مائة مدفع مضاد للطائرات ، وهذا المثل من أبسط الأدلة على الواقع الأليم .

لقد أدى اتفاق ميونيخ إلى سلب الحلفاء جيشًا قويًا ، هو الجيش التشيكوسلوفاكي المجهز بإحدى وعشرين فرقة نظامية ، بالإضافة إلى فرق الخط الثاني التي تبلغ ست عشرة فرقة ، أما خط دفاعها المحصن ، فقد كان يتطلب في هذه الأثناء ، ثلاثين فرقة ألمانية أي ما يعادل قوة الجيش الألماني الرئيسية بأسرها ، وقد ذكر الجنرال الألماني يودل أن ثلاث عشرة فرقة ألمانية، بقيت في الغرب عندما جرى توقيع اتفاقية ميونيخ ، وكانت الخسارة الفادحة حين قضت تلك المعاهدة بسلخ جزء هام من الأراضي التشيكية بما فيها مصنع سكودا البالغ الأهمية الذي كان يعتبر أهم مصنع في أوروبا الوسطى ، وكان إنتاجه بين شهر آب ١٩٣٨ وأيلول ١٩٣٩ معادلاً لما تنتجه جميع المصانع البريطانية من سلاح ، وبذلك أصبح هذا المصنع ملكًا خاصًا لهتلر قدمناه له على طبق من فضة .

❖ ❖ ❖